أخلاق وآداب الحرب
في عصر الرسول ﷺ

حقوق الطبع محفوظة
للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١١/٤٤٩٤)

٢١٢

الخليفة، حامد محمد
أخلاق آداب الحرب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم /
حامد محمد الخليفة - عمان : المؤلف ،
٢٠٠٩ ( )ص.
ر.أ.: (٤٤٩٤ / ١١ / ٢٠٠٩).
الواصفات : / الآداب الإسلامية // السيرة النبوية // الإسلام // التاريخ
الإسلامي /

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

أخلاق وآداب الحرب
في عصر الرسول ﷺ

الدكتور
حامد محمد الخليفة

دار عمار

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١١١]

الإهداء

إلى كل مسلم محب لجميع رجال عصر الرسالة

ويعمل على بناء الجيل القادم المتمسك

بأخلاقهم وآدابهم وقيمهم التي

كانوا عليها بقيادة

رسول الله

ﷺ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائل: "إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً"(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].....أما بعد:

فهذا البحث يتناول موضوعاً أساسياً يمثل مقصداً من مقاصد الرسالة الإسلامية التي جاء بها النّبي ﷺ رحمة للعالمين؛ ألا وهو موضوع ضوابط وآداب الحرب التي على نتائجها تقوم أنظمة الحكم التي تقود النّاس، وتمثل أحد الجوانب التطبيقية للتعامل الميداني مع الآخرين، وعلى ضوئها تبنى القيم الحضارية وتصنع الآداب الإنسانية، ولما كان النّبي محمد ﷺ هو القدوة في القيم الأخلاقية كما شهد له القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[القلم: ٤] كان من الضرورة بمكان البحث والتدقيق عن الأخلاق والضوابط التي كان يعمل بها رسول الله ﷺ مع الآخرين، ولا سيما صبره ﷺ وهو يرى أصحابه يعذبون، في بداية الدعوة فلم يزد على حثهم على المصابرة؛ والبشارة على ذلك بالجنة، وكيف كان انضباطهم في التعامل مع من يؤذيهم ويؤذي نبيهم ﷺ تجنباً للفتنة، فكان ثمرة ذلك الصبر إسلام كثير من زعماء قريش ومنهم حمزة ﷺ والفاروق ﷺ.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، ح (١٤٧٨).

وكيف كان موقف النّبي ﷺ حين جاءه ملك الجبال لينفذ ما يأمره به على أهل الطائف الذين ردوا عليه الرد القبيح وآذوه! فقال ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"[1] وفي موقفه ﷺ يوم كسرت رباعيته وشج وجهه ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه في أُحد حين قيل له لو دعوت عليهم، فقال: "إني لم أُبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة"[2] وقال ﷺ: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[3].

فأصبح كشف اللثام عن مثل هذه القيم وإظهارها على حقيقتها، لترسيخ اقتداء الأمة بها وعلاج مشكلاتها وفقاً لها، وبيان ما فيها من رحمة للعالمين، وحسن معاملة مع مختلف الشعوب والأمم وضرورة ترسمها في الدعوة والتعريف بالإسلام، مع دحض الافتراءات ورد الشبهات، من خلال تقديم الحقيقة التي تمحوا بوهج أنوارها أراجيف المبطلين، وأقاويل المزيفين، الذين يمارسون العدوان على عقيدة وبلاد ودماء المسلمين؛ ثم يتهمونهم بالعدوانية! دون الانجرار وراء تلك الشبهات الباطلة، أو تحويل البحث إلى منبر لنشرها باسم الرد عليها، وذلك عملاً بقاعدة، أميتوا الباطل بعدم ذكره.

فهذه المقاصد وأمثالها تمثل أبرز أسباب البحث في هذا الموضوع، وذلك لبيان قواعد العمل الأخلاقي والقيم الإنسانية التي عمل بها النّبي ﷺ وأصحابه الكرام؛ مع مختلف الشعوب والأديان التي عاصروها، ولكي يمثل ذلك الرد القاطع على من ينالون من أخلاق الحرب في عصر الرسالة، التي سمت بضوابطها في الرحمة والإنسانية والعدالة والوفاء على جميع العصور، ولما كانت هذه القيم محل تجاهل

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب: بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح (٣٠٥٩).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب و غيرها، ح (٢٥٩٩) ينظر القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى، ٢٩٩، ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ١٥٩.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ والرقيم﴾ (الكهف: من الآية٩)، ح (٣٢٩٠).

واستهداف وتشهويه وتزييف؛ عند أعداء عصر الرسالة، لم يعد هناك مناص من تجلية الرد على ذلك التجاهل، وتلك التخرصات، بالإجابة على سلسلة من التساؤلات؛ التي تظهر وتبين قيم وآداب الحرب في عصر النبي ﷺ.

فما هي الأخلاق التي تمسك بها الصحابة ﷺ حين واجهوا صلف قريش وكبرها وتكذيبها وحصارها وتعذيبها؟ وإلى أي حد كانت طاقات المسلمين في التحمل والصبر والحلم والرحمة؛ قادرة على مواجهة جاهلية المشركين، قبل أن يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم؟ ثم ما هو موقفهم من محنة الهجرة وترك الأهل والديار؟ وهل تعامل المسلمون بردود الأفعال حين تغلبهم على أعدائهم؟ وما موقفهم من الهجرة بعد فتح مكة؟ وما الآداب الحربية التي تخلقوا بها بعد أن أُذن لهم في القتال؟ ولماذا يُظهر الآخرون المسلمين وكأنهم متعطشين للحرب، في حين أنهم في عقيدتهم وثقافتهم لا يتمنون لقاء العدو إلا إذا أجبروا على ذلك؟ ويطمس الآخرون أصالة وعمق قيم الرفق والرحمة التي يتخلقون بها في ميادين القتال فضلاً عن الحياة الآمنة؟ ثم ما مدى التزام المسلمين في عصر الرسول ﷺ بالطاعة والنظام والجماعة، والمحافظة على العهود والمواثيق؟ وما موقفهم من أهل الغدر والخيانة، الذين كانوا لا يقيمون وزناً لعهد ولا ميثاق؟.

وما موقع الإعداد والتدريب في قيم الحرب في عصر الرسالة؟ وما وسائلهم في الإنفاق في سبيل الله وإعداد القوة ورباط الخيل؟ وإلى أي مدى يأخذ التدريب والتنظيم والمرابطة في سبيل الله مكانه في جهادهم؟ وما مواصفات وقيود الشجاعة وطلب الشهادة والعمل في سبيل الله عندهم؟ وما الموقف من حقوق العباد ومن أهل الأعذار في أخلاقهم؟ وما موقفهم من مشاركة المرأة في القتال والأعمال المساندة؟ وكيف كانوا ينكرون قتل النساء والأطفال والرقيق والضعفاء ويمقتون ويحاسبون من يتعمد ذلك؟.

وما موقفهم من الغنائم، وما مدى الدقة في أداء الأمانة وحفظ المكاسب؟ وما

هو حكم من ثبت عليه الغلول من الفنائم؟ ثم كيف كان تعامل الصحابة مع أهل الذمة؟ وإلى أي حد بلغت مكانة أهل الذمة وأصحاب الأعذار في أخلاق الحرب في عصرهم؟ وما الفرق في تعاملهم مع الأسرى الذين غالباً ما تجعلهم قوانين هذا العصر مجرمي حرب! في حال التغلب عليهم وعلى بلادهم؟ وحال الأسرى في عصر الرسول ﷺ الذين كان يقال لهم: إذهبوا فأنتم الطلقاء؟ على الرغم مما ارتكبوه من جرائم وآثام بحق المستضعفين من المسلمين؟ وما موقع وصية رسول الله ﷺ بالأسرى في أخلاق المجاهدين المسلمين؟.

وكيف كان من أخلاقهم في عصر النّبي ﷺ الحرص على التواصل السلمي مع المشركين وأهل الكتاب؟ وكيف قاموا بتبليغ كتب النبي ﷺ الراقية العبارة الرائدة الهدف إلى الآخرين؟ وما موقف أهل الكتاب من رسل النبي ﷺ وكتبه؟ وما مدى معرفة أهل الكتاب بصدق رسالة النبي ﷺ ومدى مصداقية مواقفهم منها؟.

ثم ما هي أدبيات الصلح في أخلاق المسلمين في عصر الرسالة؟ وهل سجل التاريخ على المسلمين موقفاً واحداً من مواقف النقض ونكث العهود؟ وما مدى حذر المسلمين واحتراسهم من أعدائهم؟ وما معنى قوله ﷺ الحرب خدعة؟ وما الموقف من الجواسيس وأهل الغدر في قيم المجاهدين في عصر الرسول ﷺ؟ وما موقفهم من مكر المنافقين ونقض اليهود لعهودهم التي أقاموها مع المسلمين؟ وما هي أسباب إجلاء اليهود من جزيرة العرب؟ إلى غير ذلك من تساؤلات يظهر فيها زيف دعاوى أعداء الصحابة من أهل المشرق والمغرب وبطلان اتهاماتهم، ووفاء الصحابة ونبلهم ورحمتهم وعدلهم وشهامتهم في كل مواقفهم ﷺ.

إن الإجابة على هذه السلسلة من الأسئلة المتشعبة والدقيقة وغيرها بما يزيل عنها الغموض ويدفع الشك ويزيل الريب ويبطل الزيف، ويبعث على القبول والاطمئنان واليقين، وذلك بعد التمحيص والتدقيق والموازنة والمقارنة، سيمثل المادة الأساسية لهذا الموضوعَ فضلاً عمّا يتشعب عن ذلك من مسائل فرعية وتحليلات بحثية ونتائج علمية،

جميعها تستند إلى أدلة من الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من الكتب الموثقة التي تكاد أن تشكل بمجموعها وجهاً من وجوه السيرة الصحيحة المتكاملة، التي لا تتوفر في كتاب منفرد، ولا توجد في صنف واحد من كتب الحديث أو التراجم أو كتب التاريخ والسير، وإنما هي ثمرة من كل تلك الرياض المونقة، جاءت مستندة إلى روايات الصحاح وما يوافقها من بقية المصادر، يُرتجى منها أن تصل بتوافق تحليلاتها، وعميق استنباطاتها، وتجانس فصولها، وتآلف مباحثها؛ إلى نتائج حاسمة، تشكل بمجموعها مفاصل قيم وآداب الحرب في عصر الرسول ﷺ، التي جاءت في هذا البحث على وجه يستند إلى كتب الصحاح، ولا يبعد عن السنن والمسانيد، ولا يستغني عن كتب السير والتاريخ، والتراجم والمعاجم، ليشكل بعد ذلك لوناً جديداً من ألوان دراسة السيرة النبوية، وسبباً أساسيا في إبراز أخلاقها السامية على نحو من الوضوح والدقة والتحقيق والموضوعية، التي تؤكد سبق المسلمين في القيم الأخلاقية عن سائر الأمم.

منهج البحث

لعله من المناسب الإشارة إلى منهج البحث وكيفية جمع لحمته، فقد ابتدأ العمل في جمع المادة العلمية بكتب الصحاح، وأخذ ما فيها من مظان لمادة البحث، ثم التوجه إلى كتب السنن وجمع ما فيها من مادة قريبة من عنوان البحث، ثم كتب المسانيد والتفسير وعلوم القرآن، ثم كتب الصحابة والسير والمغازي والطبقات، ومراجعة بعض كتب التاريخ للاستزادة في تفاصيل بعض الوقائع والأحداث، ولم أجد بغيتي في عامة ما طالعته من الكتب المعاصرة، لذلك انصب اهتمامي على المصادر الأصيلة لتكوين مادة البحث المطلوبة، فكان أن اجتمع حوالي ألف صفحة، وبعد الفراغ من مرحلة الجمع بدأ الفرز بحسب العناوين التي ستكون جزءاً من الموضوع، ثم المقارنة واستبعاد المكرر وتنقية المتشابه، والتدقيق فيما له صلة مباشرة في الموضوع، واستبعاد ما ليس له صلة به، حتى اقتربت المادة من صلب الموضوع فبدأت العمل في تفصيل ما في العناوين فازداد حجم البحث، فعدت مرة

أخرى أدقق النظر أكثر فأكثر حتى لم يبق من النصوص إلا ما له علاقة مباشرة بأخلاق الحرب في عصر النبوة بحسب علمي وتجربتي، ثم باشرت الكتابة والتنسيق والمقارنة والتحليل والاستنباط والتقديم والتأخير، لإبراز أخلاق المجاهدين في الرسول ﷺ من عامة زوايا الحياة المتعلقة بمفاهيم الحرب، منذ مرحلة الإعداد لها، إلى ما بعد الإفراج عن الأسرى، وبعد التدقيق والتصفية وإعادة القراءة مرات ومرات، ظهر البحث بهذه الصورة التي أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن يسبغ عليها القبول عنده ﷻ ثم عند عباده الصالحين، ليضاف بذلك لبنة جديدة إلى زاد الدعاة وفن التعامل الشرعي مع الآخرين المنبثق من قيم وتجارب الصحابة الذين كان يرعاهم رسول الله ﷺ ويشاركهم بعلمه ونفسه الشريفة ﷺ.

عرض البحث

جاء هذا الموضوع بناء على خطة علمية منهجية منطقية، تهدف إلى تغطية جميع مفرداته بشكل متوازن متقارب، لا حيف فيه ولا تفريط، خال بقدر الإمكان من التكرار إلا بقدر ما يثبت المعلومة أوينبه إلى أهميتها وأصالتها، بعيداً عن الحشو والإطناب، شاملاً بقدر المستطاع لضوابط الحرب في عصر الرسالة، لا يستطرد وراء الأفكار لكي لا يخرج عن حدود الموضوع، ولا يبتر الأحداث فيقدمها مشوهة لا تخدم الحقيقة.

وقد جاء هذا الموضوع في **مقدمة وخمسة فصول، في كل فصل ثلاثة مباحث،** فاشتمل **الفصل الأول** على دراسة قيم وآداب أخلاق الحرب في عصر الرسالة، فأظهر المبحث الأول: قيم الصبر والحلم والعفو والرحمة التي يتمتع بها المسلمون، من خلال تعاملهم مع المشركين، وما مارسوه عليهم من الأذى والظلم! وأظهر المبحث الثاني: صبر المسلمين على محنة الهجرة وما رافقها من ألام وأخطار، وما سطروه من مواقف إنسانية رائدة، وتناول المبحث الثالث: الموقف من الحرب, وآداب المسلمين في عدم تمني لقاء العدو، وما اشتملت عليه ثقافتهم من الرحمة

والرفق والطاعة والحرص على الجماعة والوفاء بالعهود، والإشارة إلى ارتباطهم الدائم بخالقهم ﷻ واللجوء إلى الله تعالى في الدعاء وتفويض الأمر إليه سبحانه بعد الأخذ بجميع الأسباب المتاحة.

أما **الفصل الثاني**: فتحدث عن وسائل الإعداد والتدريب والتنظيم، ومكانة الشهادة في سبيل الله وضوابطها في عقيدتهم، فتناول المبحث الأول: وسائل الإعداد من الإنفاق في سبيل الله تعالى، ومباشرة التدريب واللياقة، وتعلم الرمي وسباق الخيل وما إلى ذلك، وجاء المبحث الثاني: حول وسائلهم في تنظيم أعمال الحرب واستعمال الرايات والشعارات وتنظيم التحركات، مع إظهار أخلاقهم في الشجاعة والصبر على القتال والمرابطة في سبيل الله، أما المبحث الثالث: فيعرض مكانة الشهادة في سبيل الله وضوابطها، والموقف من حقوق العباد، وأهل الأعذار في أخلاق الحرب في الرسالة.

واشتمل **الفصل الثالث**: على بيان الموقف من الضعفاء والجواسيس والأسرى، فبين المبحث الأول: الموقف من مشاركة المرأة في القتال وأعمال المساندة، وبيان تحريم قتل النساء والأطفال والمسالمين، وأظهر حرص المسلمين على تحرير الرقيق، والتعامل معهم وفقاً لوصية النبي ﷺ بهم. والمبحث الثاني: تناول مسألة الغنائم وأداء الأمانة، وشدة التحذير من الغلول. وفي المبحث الثالث: يتضح احتراس المسلمين وحذرهم وفهمهم لقوله ﷺ "الحرب خدعة" وبين الموقف من الجاسوس، وأظهر رقي وإنسانية وانضباط التعامل مع الأسرى في ميادين الحرب وبعد انتهاء المعارك في عصر الرسالة المباركة.

وبين **الفصل الرابع**: سبل ووسائل التواصل السلمي بين المسلمين والمشركين وأهل الكتاب، فأظهر المبحث الأول: أثر المعاهدات والرسل وكتب النبي ﷺ وموقف المشركين وأهل الكتاب من ذلك، وتناول المبحث الثاني: بيان أهمية الصلح والحرص عليه عند المسلمين، والمبحث الثالث: تحدث عن أهل الذمة والجزية وأهمية الوفاء لأهل الذمة وحمايتهم والدفاع عنهم، في كل ما قام به

الصحابة ﷺ في عصر الرسالة.

والفصل الخامس: بيّن الموقف الحربي المتوازن والمنضبط في التعامل مع مكر المنافقين وغدر اليهود، فبين المبحث الأول: خذلان المنافقين للنبي ﷺ وإرجافهم بالصحابة ﷺ ومحاولتهم الفتك برسول الله ﷺ وأهداف بنائهم لمسجد الضرار، وتحدث المبحث الثاني: عن تعامل المسلمين في عصر الرسالة مع اليهود والموقف من إعلان اليهود لهم بالعداوة ونقض العهود، وبيان صبر النبي ﷺ على زعمائهم الذين نقضو المواثيق وأعلنوا التعاون مع المشركين، وبيان الأسباب المشروعة التي دعت إلى التخلص من أولئك الزعماء، واتضح في المبحث الثالث: أسباب إجلاء اليهود من الحجاز، ثم الخاتمة ونتائج البحث وفيها بيان تمام الإجابة على سلسلة التساؤلات التي طرحت في هذه المقدمة، ولما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج وثمار يانعة، تجلت فيها أخلاق الحرب الحضارية المشرقة في عصر الرسالة، بعيداً عن شوائب المدلسين وغرائب المشوشين، وأباطيل أعداء الصحابة ومن يوافقهم من المستشرقين والصليبيين؛ وغيرهم من المتزمتين واللاموضوعيين، أو المرجفين والمهزومين، ثم قائمة المصادر والمراجع، ومحتويات البحث.

وفي نهاية هذه المقدمة؛ فإنّ هذا جهد المقل في هذا الميدان الفسيح، أدخره عند الله تعالى لظلمة القبر ويوم الحساب، وقد أبى الله تعالى أن يكون الكمال إلا لكتابه ﷻ فإن أحسنت فمن توفيق الله وفضله، وإن كانت الأخرى فلا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي أني أفرغت الوسع وبذلت الجهد، وأستغفر الله تعالى من كل خطأ وزلل يخالف الحق والصواب، والله من وراء القصد، وحسبي الله ونعم الوكيل.

حامد

الدوحة ١٠/ ١١/ ١٤٣٠هـ

٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٩

الفصل الأول

في قيم وآداب وأخلاق الحرب في عصر الرسالة

المبحث الأول

في قيم الصبر والحلم والعفو والرحمة

الموقف من أذى المشركين قبل الهجرة

لعل من أبرز القيم والثوابت في أخلاق الصحابة ﷺ؛ تجذر ثقافة الحلم والعفو والصفح والمسامحة والرحمة؛ ليس تجاه عامة الناس فقط، وإنما تجاه من مارس الظلم والقتل والحرمان والبهتان ضدهم، وهذه ثوابت حضارية وقيم أخلاقية تأكدت معانيها في مواقف رسول الله ﷺ ومن بعده في مواقف خلفائه الراشدين، ثم استمرت تُضيء صفحات الحضارة الإسلامية على مرّ العصور يرتفع منسوبها أحياناً إلى حد التنافس والمسابقة على تدوين أكبر وأوسع معانيها؛ وأحياناً ينخفض ذلك تحت وطأة آثار خارجية أو أفعال عدوانية غالباً ما تغلق أبواب التصالح والتسامح؛ حتى يضطر المسلم إلى الدفاع عن نفسه وأمته وعقيدته، فيصنع المغرضون من ذلك الحق المشروع، أو من بعض المواقف الدخيلة على الثقافة الإسلامية، مادة للتشهير بأخلاق الحرب في الإسلام عامة، ويعملون على تضليل الناس عن ثقافة كظم الغيظ والإحسان والعفو ومعاني قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فُصِّلَت: ٣٥] وأمثال ذلك مما يتخلق به المسلمون، ولا يوجد عند سواهم، وبناء على هذه الثوابت يمكن القول أن التشويش على القيم الإنسانية المتأصلة في الوقائع العسكرية التي خاضها

المسلمون في عصر النبوة؛ إنما هو من باب التخرص وثقافة الإفك التي ينميها خصوم عصر الرسالة، ذلك العصر الذي فاق بمواقفه الإنسانية جميع العصور حتى أصبح في موقع القدوة لكل موقف إنساني نبيل.

ولعل المطالع للسيرة النبوية بعلم وأمانة وعمق، يجد أن صفحات حربها أنقى وأطهر وأروع صفحات حرب خاضها البشر على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] فهذه التوجيهات المبنية على الرحمة والصبر والتسامح هي التي أثمرت أمّة الصحابة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] تلك الأمة الرائدة التي كانت تعمل بهدي قوله تعالى:﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله تعالى:﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[التغابن: ١٤] وقوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] ونحو هذه المعاني التي بلورت قواعد أساسية، وثوابت أخلاقية في الحضارة الإسلامية، تجلّت فيها قيم الصبر والعفو والحلم على أوسع نطاق، فكان النبي ﷺ وأصحابه الكرام يعفون عن المشركين وعن أهل الكتاب عفواً عملياً تطبيقياً، ويصبرون على أذاهم ونقضهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فكان النبي ﷺ يتأول في العفو بما أمر الله

به[1] ويصبر على ألوان الأذى والفتنة التي صبّت عليه ﷺ وعلى أصحابه ﷺ يظهر ذلك في مواجهته الحليمة الهادئة لكثير من العنت والكِبر والتكذيب الذي واجه به المشركون مسيرة النبوة على مدى سنين طويلة.

ومن صور ما لقيَ رسول اللّه ﷺ من أذى قومه: حثو سفهائهم التّراب على رأسه ﷺ ومنها أنّهم كانوا ينضدون الْفَرْثَ والأَفْحاث والدّماء على بابه ﷺ ويطرحون رحم الشّاة في بُرمته ومنها: بَصْقُ أُمَيّة بن خلفٍ في وجهه ﷺ ومنها: وَطْءُ عقبة بن أبي مُعَيْط على رقبته وهو ساجد عند الكعبة حتّى كادت عيناه تبرزان ﷺ ومنها أخذهم بمخنقه حين اجْتَمَعُوا لَهُ عِنْدَ الْحِجْرِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَزَادَ غَيْرُهُ الْخبر أَنَّهُمْ خَنَقُوهُ خَنْقًا شَدِيدًا ﷺ وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته حتّى سقط أكثر شعره وأمّا السّبّ والهجو والتّلقيب وتعذيب أصحابه وأحبّائه وهو ينظر ... وقد قال أبو جَهْلٍ لِسُمَيّةَ أُمّ عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ: مَا آمَنْت بِمُحَمّدٍ إلاّ لأَنّك عَشِقْته لجماله ﷺ ثُمّ طعنها بِالْحَرْبَةِ فِي قُبُلِهَا حَتّى قَتَلَهَا رضي الله عنها، وَالأَخْبَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ[2] قال عبد الله بن مسعود ﷺ: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس. فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه. فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النّبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، فلما سمعوا صوته

---

(١) ابن حجر: البخاري بشرح فتح الباري، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، شرح الحديث (٤٢٩٠).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٢/ ٤١.

ﷺ ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته ﷺ[1] ولعل موقف ابن مسعود ﷺ وهو يرى رسول الله ﷺ يؤذى علانية وقلبه يتقطع حسرات على نبيه ﷺ وهو لا يستطيع أن يغير ساكناً، ولا نصير ولا معين أو منكر لذلك العدوان، يبين صبر الصحابة وبعض ما كانوا يكابدونه من المشركين، وواضح في موقف قريش الاستفزازي المتعمد هذا تجاه رسول الله ﷺ كِبر الجاهلية وموت المروءة الذي قادهم إلى مثل هذا الفعل المشين، الذي لو تعرض له غير رسول الله ﷺ لكان من الممكن أن يوقد حرباً قد تأتي على وحدة قريش وأمنها ومكانتها، ولكن اكتفاء رسول الله ﷺ بالدعاء وامتصاصه لآثار ذلك الفعل المؤلم بحلمه ﷺ الذي تجلت فيه أخلاق النبوة وقدرتها على الاستيعاب والتجاوز، أسهم في استمرار الأمن والهدوء في مكة، وذلك يؤكد أمراً لازال مستقراً في نفوس المؤمنين ألا وهو حبهم للسلام والأمن وحرصهم على عافية الأمة ووحدتها؛ وإن كان ذلك على حساب استقرارهم وحقوقهم المشروعة، فما أحوج الدعاة في هذا العصر إلى التمسك بمنهج النبي ﷺ وسيرته، سعياً وراء تجديد ما اندرس من معالم الدين ووحدة المسلمين.

قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ فقال ﷺ: " لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرَضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[2] فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عزّ وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ح(١٧٩٤).

(٢) قرن الثعالب: اسم موضع بقرب مكة، وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير. والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه. ينظر شرح الحديث.

إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟! إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين" فقال له رسول الله ﷺ: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً"(١)

وفي هذا الموقف النبوي العظيم يتبين حب السلم والعافية في أخلاق المسلم، ولم يكن ذلك صادراً عن ضعف بقدر ما هو خُلق ثابت في عقيدته، وسمتٌ ظاهر في مواقفه ﷺ وإلا فإنه من المعلوم أنّ أي صحابي يتشرف بافتداء رسول الله ﷺ بنفسه وماله، اتضح ذلك في مواقفهم العملية في يوم الهجرة ويوم أُحد وغير ذلك، كما أنّ محبّة النّبي ﷺ التي تزيد على النفس والولد هي علامة الإيمان برسول الله ﷺ قال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"(٢).

وإذا كان الصحابة ﷺ عاجزين عن الدفاع عن رسول الله ﷺ في مكة، فإن موقف رسول الله ﷺ في رده على ملك الجبال ورجائه أن يُخرج الله من الذين يكذبونه ويؤذونه ﷺ ذرية توحد الله تعالى وتعبده، مصداق لأهمية السلام والمسامحة والرحمة في أخلاق رسول الله ﷺ وهذا يبين الفرق الواسع بين من يتخلق بأخلاق العفو أحياناً للحصول على مكاسب سياسية أو لتحقيق بعض التحالفات العسكرية أو المزايا الاقتصادية، وبين من يدين بخلق العفو وعقيدة التسامح أصالة، ويرجو من الله وحده المكافأة والقبول، حتى شهد القرآن الكريم لرسول الله ﷺ أنه كان يعزّ عليه عناد المشركين ويؤلمه إعراضهم، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨] فكانت قيم الحرص على هداية المشركين والشفقة عليهم ثابتة عند النّبي ﷺ وأصحابه ﷺ فأي دعوة تخلصت من أهوائها وعملت بهذه القيم لله تعالى ولم تفلح ويتحقق لها النجاح والظفر؟!.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ح (١٧٩٥). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدأ الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح (٣٠٥٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، (١٥) صحيح مسلم: كتاب ا لإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ح (٤٤) ابن حجر: العجاب في بيان الأسباب، ٢/ ٩١٥. ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، ١/ ٣٤٢.